التطور الاجتماعى والتطور اللغوى

للدكتور شكرى فيصل عضو الوفد السورى

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل :

يقوم هذا الموضوع على ملاحظة ما يواجه الحياة العربية فى جملتها من تطور ، ثم على ملاحظة الصلة بين التطور الاجتماعى وبين التطور اللغوى

ان اعتبار اللغة وظيفة اجتماعية اضحى واحدة من النظريات الاساسية فى الذهن البشرى لان اللغة هى التى تنهض بايصال الفكر ، وعن طريق اللغة نعبر عن افكارنا ومشاعرنا ، وحين نمتلك اللغة فان ذلك يساعدنا على امتلاك مايدور فى عالمنا الداخلى ، اى امتلاك التفكير ، وامتلاك الوسيلة لايصال هذا التفكير .

ولعل ابرز ما يتصف به المجتمع المعاصر ، انه مجتمع متفجر لا تتفجر فيه اعداده فحسب وانما تتفجر فيه كذلك الميول والرغبات ، وتتفجر فيه العواطف والافكار ، تفجرا تجاوز التقدير والتخيل . وهل من شك فى ان البشرية قد حققت فى كل هذه الانواع من التفجرات ، خلال نصف القرن ، اضعاف ما حققت على مدى تاريخها الطويل .

والمجتمع العربى واحد من هذه المجتمعات ، يواجه كذلك هذا التفجر والتوسع والنمو ، ، ولذلك اثره على كل مقوم من مقوماته ، واللغة واحدة من هذه المقومات .

ومن هنا كان لابد من ان يطرح هذا الموضوع : ما هى هذه الصلة بين النمو الاجتماعى وبين الحياة اللغوية وكيف نستطيع ان نفهم هذه الصلة على نحو نحكم معه قيادها ، فلا يفلت من بين ايدينا زمام اللغة ، ولا يمضى التفجر على نحو عشوائى ، ، ، وانما يخضع الامر الى حركة متساوية مع حركة البنى الاجتماعية .

تحديد :

لابد فى البداية من ان نحاول تحديد الالفاظ التى نستعملها . فما الذى نريده من النمو او الاتساع الاجتماعى ؟ ما هو المفهوم الواضح لهذين التعبيرين . وهل من فرق بينهما ؟

اجدنى مضطرا ، منذ اللحظة الاولى ، الى ايضاح مابين هاتين اللفظتين من تباين ، حتى لا يقود تجاهله الى غموض .

ان الاتساع نوع من التزايد ، ، وهو تزايد كمى يكون فى الرقعة او فى الحجم ، ويكون فى السلطة والثراء ، وقد يلازمه شىء من التخلخل كثير او قليل .

على حين ان النمو تغير ، ، تغير يتناول الكم ويتناول الكيف فى آن واحد ، ، وهو تغير يمنح ، فى ذات الوقت القدرة على الارتقاء المقرون الى التماسك .

وتذهب جملة الدراسات النفسية والاجتماعية الى ان النمو سلسلة من التغيرات تتميز بثلاث صفات اساسية : انها تغيرات تدريجية ، ومنظمة ، ومتماسكة هدفها الاساسى تحقيق النضج والارتقاء .

فالتدرج فى هذه التغيرات يعنى أن الخطوات فيها تكون متتابعة تتابعا ارتقائيا ، والتنظيم فيها يعنى أنها خاضعة لقانون دقيق .

والتماسك — وهو الذى الح عليه — يعنى ان هناك علاقة محددة بين المرحلة والمرحلة التى سبقتها بحيث يتكون من هذه المراحل جميعها كل واحد لاركام متجمع .

وعلى اساس من هذا يجب أن نفهم النمو ، ، ، ان ما نلاحظه من زيادة فى اعداد المؤسسات والمعامل والمدارس ، تنضاف معه مؤسسات جديدة الى مؤسسات سابقة ، ومعامل منشاة الى معامل متوفرة ومدارس لم تكن الى مدارس كانت — لايمكن ان يكون نموا الا اذا تحققت فيه شرائط النمو التى ذكرت ، ،

ان اكثر ما نعانيه فى البلاد العربية مقادير من الاتساع ونتمنى ان يتحقق لنا النمو ، اى ان تتحقق لنا هذه العملية الدينامية التى تتلاقى فيها البنى والوظائف تلاقيا يشبه ان يكون اندماجا ، ، ، بحيث تؤلف كلها بنى جديدة اكمل واشمل ، وتتعاون على وظائف ادق واوسع ، ، ، ان هذا الدمج هو الذى يجعل التغيرات موصولة بما سبقها ، ومؤثرة — او قل مؤهلة — للذى يليها .

فاذا استقام ذلك حقق النمو هدفه اى حقق النضج الذى نريده ، ، ، وانتقى أن تاسى الاعمال سلسلة من المواليد المجهضة ، واكتملت التغيرات ، واضحى التقدم نتيجة طبيعية لكل ذلك .

وكذلك نرى ان النمو لابد له ان يتناول كل العلاقات المتواشجة داخل المجتمع الواحد ، للحضارة والثقافة واللغة .

فاذا جئنا بعد هذا نتساءل اين يجب أن تقع اللغة من هذا النمو الذى ننشده وما هو مكانها فيه ، استبان لنا أن دورها فى نطاق النمو الكمى ليس هذا الدور الاساسى وليس هو الذى نتوقف عنده فى هذا البحث وانما يجب ان يكون دورها الرئيسى فى النمو الكيفى . وعلى قدرما نريد ان يكون هذا النمو متدرجا ومنظما ومتماسكا تكون اهمية العمل اللغوى ومكانته ، ، وذلك حين نذكر امرين اثنين .

احدهما : ان اللغة تمثل ذاكرة الامة ، تختزن فيها تراثها وقيمها ومفاهيمها .

والآخر : انها اداة اساسية فى حركة هذا المجتمع وفى نموه ، لهذه الصلة التى تنفصم بين اللغة والفكر وبين اللغة والمشاعر التى تلهب الفكر فى طريقه الى عوالمه المجهولة او غاياته البعيدة .

وهل نحتاج الى ان نتوقف هنا نتحدث عن الادلة والشواهد لهذا ؟ ، ، ،

فى تاريخنا كان هنالك هذا الشاهد المتجدد ، ، وفى تاريخ اعدائنا هذا الشاهد الجديد — فى تاريخنا كان نزول القرآن الكريم هو الحركة الاولى ، ، الضربة التى فجرت الينبوع والتى استطاعت ان تحيى به الارض كلها ، وان تستنبت فيها هذه الحضارة التى احتفظت بحيويتها ونسغها ، على كل النكبات والمصائب

والقرآن الكريم — اذا جاز لى ان افصل لحظات بين الفكر واللغة — انما كان حركة اللغة التى واكبت النمو العربى والتى حققته ، ،

انه جاء — فى تصور جديد اخذ يغزونى — بعد بحران لغوى فى الجزيرة العربية لعله اشبه ما يكون بالحران اللغوى الذى يعانيه الوطن العربى اليوم ، ، ، ومن أجل هذا كان فيما اقدر — الاصرار على وصفه بانه بلسان عربى مبين — فى كثير من الآيات الكريمة ، اى انه — اذا جازلى مرة اخرى ان افصل هذا الفصل النظرى بين اللغة والفكر — كان الفكرة وكان اللغة فى آن واحد ، ، وانه كان التغيير اللغوى وكان التغيير الفكرى والاجتماعى ،،، وانه — على نحو غير مباشر — استطاع أن ينتزع العرب من فوضى اللغة على نحو ما استطاع أن ينتزعهم من فوضى الفكر والعقيدة ، ، الم يصل الأمر ، قبل الاسلام الى أن يتبهم ما بين العربى والعربى ، ، وان ينفصم ما بين الشمال والجنوب فى الجزيرة العربية ، ، وان ينفصل ما بين الشرق والغرب الم يبلغ الامر هذا المبلغ الذى تصوره جملة ابى عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير واقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » ، ، ؟

انى لااريد لمن اقول ما اشبه الليلة بالبارحة ، ، ولست حريصا على اقامة هذا التوازن قدر ما احرص على ضرورة هذا التكامل المتكامل بين النمو الاجتماعى الذى نواجهه او الذى ننشده وبين اداة هذا النمو الذى لايقوم الا بها .

قلت اننى امام شاهد متجدد من تاريخنا ، ، وامام

شاهد جديد من حركة اعدائنا ، الشاهد الجديد يتمثل فى الحركة اللغوية فى اسرائيل » ،

فقد كان اول ما صنعته فى سبيل وجودها الجديد انها ذهبت الى احياء اللغة العبرية حتى تحقق مجتمعا متوازنا » ، انها قرنت بين حركة البعث اللغوى وبين حركة المجتمع البشرى وبين حركة الظفر بالارض » ، بل لعلها وجدت فى اللغة معتصمها قبل ان يكون لها على الارض مستعمرة واحدة تقيمها » ، لم يكن حائط المبكى وحده موطىء قدمها الذى تجمعت حوله وانطلقت منه تأكل الارض كلها » ، وانما كانت اللغة التى بكت بها عند هذا الحائط هى التى مكنت لها ان تفعل كل الذى فعلت وان تؤصل لـه

فى غنى نحن اذن ان نتحدث عن الادلة والشواهد انه اضحى فى حكم الحقائق المطلقة فى وجودنا العربى ، على نحو ما هو الامر فى الذهن البشرى ، ان اللغة بما هى اختزان للفكر وبما هى تعبير عنه وبما هى ايصال له — اللغة بكل هذا هى الاداة الاولى لقيام المجتمع المتماسك وعلى قدر ما يكون من توازن بين حركة المجتمع ، تفجرا او نموا او اتساعا ، وبين حركة اللغة تفجرا ونموا واتساعا ، يكون هذا التماسك » ، وحين يطغى التفجر الاجتماعى وحين نحتاج ان نخرج به عن الاتساع الكمى الى النمو الطبيعى نحتاج الى هذه اللغة ، بهذه الوظيفة العريضة لها — اداة تحيله الى نمو ناضج وارتقاء مطرد .

واذا كان ذلك كذلك فماذا يجب ان نفعل الآن امام هذا الواقع الماثل ، فى نطاق العمل اللغوى ؟

من الواضح اننا لن نستطيع ان نذهب مذهب بعض هذه المدارس اللغوية المحدثة التى تقول : دع لغتك وشانها فلم يعد هناك من سبيل امام تدافع العوامل الاجتماعية وتداخلها وتفاعل بعضها مع بعض ان نترك الأمور وشانها ، تمضى على النحو الذى تشاد

ذلك ان حركة النمو لم تعد حركة حتى فى اشد البلاد ثورية وبعدا عن التقييد والتقنين » ، ـ تسميتها احيانا بانها «حركة تنمية» يشعرنا انها باتت حركة مخططة او كذلك يجب ان تكون » ، وقد تجاوز العالم كله طور الاطلاق ، العالم النامى والعالم الذى هو على طريق النمو » ، والمجتمعات كلها الآن تخضع لهذا التخطيط وتخضع له جوانب حياتها او ما استطاعت من جوانب هذه الحياة » ، فلم يعد من سبيل اذن الى ان نتصور هذا المجتمع الذى يتفتح تفتحا حرا من اطرافه كلها ، ولعل التواصل بين الجماعات والشعوب هو الذى فرض ذلك » ، لانك حين تكون من انصار هذا التفتح الحر فان جيرانك من حولك ، بما يكون من تصرفاتهم واعمالهم ، يضطرونك الى ان تعدل عن ذلك فى هذا النحو او ذاك » ، ان سقوط الحدود بين الشعوب وهذا التواصل بين المجموعات البشرية والتقاء الدول فى المنظمات الدولية المتكاثرة والمتنامية وضمور الابعاد المادية والمعنوية — ذلك كله اضطر الجماعات الانسانية ان تنظر دائما بعينين اثنتين : العين التى تنظر فيها الى ما هو داخل حدودها ، والعين التى تنظر فيها الى ما هو خارج هذه الحدود » ، ولعلنا نولى الآن ما هو خارج الحدود اكثر مما نولى داخل الحدود .

وفى بلادنا العربية تتضافر جملة من العوامل — لا شان لنا بالحديث عنها الآن — على دفع التطور الاجتماعى وشق الطرق امام حركة التنمية » ، وايا كان شان هذه العوامل ، اكانت اصيلة ام دخيلة ، اكانت محمولة على الشعوب ام كانت من صلب حاجاتها ، فان الحكومات تعمل جاهدة ان تضبط هذه العوامل وان تتحكم فيها ، حتى لا يصاب هذا المجتمع الوليد ببعض التشوهات او الانحرافات .

واذا كان هذا هو الشان فى النمو الاجتماعى فانه كذلك فى النمو اللغوى » ، انه نمو لايمكن ان يترك يمضى حيث يشاء على النحو الذى يشاء :

فى تاريخنا فى الماضى لم نستطع — وما كان لنا — ان نترك النمو اللغوى حرا » ، وفى حركة الامتداد العربى فى ظل الاسلام فى القرن الاول الهجرى ، فى مثل هذا التواصل والتمازج الذى تم بين الشعوب الاسلامية وجدنا انفسنا امام حاجة ملحة لان نخضع التمازج اللغوى الى شىء كثير من التقنين والتعقيد » ، كانت حركة تعريب الدواوين فى هذه المراكز الاساسية : فى العراق الذى يؤدى الى الجناح الشرقى من الدولة الاسلامية ، وفى الشام ومصر اللتين كانتا تؤديان الى الجناح الغربى ، انتشرت العربية فى ظل انتشار الدين والدولة .

وفى اطار اللغة نفسها وجدنا حاجتنا الملحة الى مثل هذا التدخل » ، لم نترك لغتنا وشانها : للحن

بداخلها وللعجمة تتاكلها من اطرافها » ، ومضينا نصنع هذا النمو صناعة : نكتشف الصيغ والبنى والقواعد ، ونأخذ بها السنة هذه الاجيال الناشئة فى ظل هذه الحركة العالمية الكبرى التى كنا ندعو اليها .

وفى تاريخنا الحديث كذلك ، فى حركة الاحياء ، كانت هذه السلسلة من محاولاتنا فى ان تكون نهضتنا اللغوية مواكبة لجوانب النهضة الاخرى » ، احياء اللغة واستحياء التراث ، والاستيحاء من هذا التراث فى المثل والاخلاق وبناء النفوس وتجديد المعاجم وتنسويعها والتوجه نحو الدراسات اللغوية » ، فى كل ذلك كنا فى الواقع نحاول او نزاوج بين لونين من التطور : التطور الاجتماعى والتطور اللغوى » ، وكنا نفعل ذلك عن قناعة داخلية وعن يقين عميق فى ان سلامة اللغة ، بالمعنى العريض للغة تفهم مقترنة بسلامة المجتمع ، وان فى اختلالها واضطرابها اضطرابه وتخلخله ،، بل كنا نذهب الى ابعد من ذلك ، نذهب الى ان النمو اللغوى — بالوظائف التفكيرية والتعبيرية للغة — انما هو منطلق النمو الاجتماعى .

ما كنا نؤمن به ، ونعمل له على طول مراحل تاريخنا . . فى الماضى القريب » ، يظل هو الايمان ، ويظل هو القاعدة ، ويظل كذلك هو المنطلق ، ويمكن أن تصوغه المعادلة التالية :

حركتنا الاجتماعية — بأوسع معانى الاجتماع — متكاملة ومتنامية دائما مع حركتنا اللغوية بأوسع معانى اللغة ووظائفها . والتقدم السليم فى شق من هذه الحركة او تلك لا يمكن الا ان يتواكب مع التقدم السليم فى الشق المماثل من هذه الحركة الاخرى . والخيوط التى تربط بين هاتين الحركتين من التشابك والتداخل والتفاعل بحيث نستطيع أن نلحظ دائما هذه الجملة من الخيوط الدائرية التى لا نملك أن نحدد بداياتها ونهاياتها اهى من هنا ام هى هناك .

كل هذا ونحن ننطلق من افتراض ان التطور اللغوى الذى نفكر فيه ونتحدث عنه لا يتفاعل الا مع هذا التطور الاجتماعى العربى ،، فاذا ذكرنا ان هذا التطور اللغوى تنتابه من كل وجه عوامل خارجية اخرى تريد أن تتحكم فيه ، وان هجمات شرسه تريد أن تقتلع جذوره مرة ، وهجمات اخرى تصطنع قفاز الحرير تريد ان تخالطه وتدعى انها تؤاخيه — كان معنى ذلك أن حركتنا اللغوية لابد لها من ان يخالطها شعور آخر او اهتمام آخر هو الحفاظ عليها » ، فى مواجهة هذه القوى الخارجية التى تعمد عمدا الى محاولة امساكها على الالسنة ، او تغييبها من المجتمع ، او حصرها فى بعض الدوائر الضيقة واذن فقد اكتمل للحركة اللغوية اطران اثنان اساسيان :

احدهما ان تكون الحركة اللغوية فى مواكبة التطور الاجتماعى ، بحيث تتسع له وتنهض بالتعبير عنه وتكون اداة من ادواته على نحو ما تكون — احيانا من الدوافع اليه .

والآخر ان يخالط هذه الحركة شعور بالحفاظ عليها ، والايمان بمكانتها والاعتراف بانها نسغ الحياة فى هذه الشجرة الوارفة التى تمتد امتدادها الرائع فى سرة العالم امتداد الشعب العربى وانها نسغ الحياة فى صلة ما بين الشعب العربى والشعوب الاخرى التى تؤاخيه فى عقيدته وتشاركه فى حروفه واصواته .

اذا استقام لنا ذلك فى تفكيرنا النظرى كان لابد له ان يجد مكانه فى الواقع العلمى فما هى الوسائل الى ذلك وكيف نقيم هذه الجسور الدائمة التى تجعل حركة التطور الاجتماعى والتطور اللغوى حركة واحدة لها مدها المشترك وضفافها المتعانقة ؟

فى البداية بعد مرحلة القناعة التى تفرضها كل هذه المسلمات : الواقع والتاريخ والحياة لا بد من حركتين متعاقبتين فى الواقع الاجتماعى والواقع النفسى .

فى الواقع النفسى لا بد من ان تستحيل القناعة الى ايمان والايمان هو الذى يقود الى الحركة الاخرى التى اقول انها فى الواقع الاجتماعى واعنى بها الممارسة ومعنى ان نخرج من القناعة الى الايمان ان نغادر البحث النظرى فى هذه الامور مغادرة لا رجعة بعدها . ان عيب المرحلة الحاضرة فى الوطن العربى انها تطرح دائما للمناقشة . المبادئ الاولى التى تؤمن بها انها لا تصدر عنها بل تظل تدور حولها انه ليس هنالك مثلا انسان سوى مهما يكن حظه ضئ من الثقافة لا يؤمن بأن الحدود الدنيا فى الحياة العربية هى وحدة ما بين هذه الحياة وتشاركها فى السراء والضراء . ومع ذلك فنحن نظل نلف وندور فى اثبات هذا الاصل النظرى ونظل نكتب فيه الابحاث الضافية ونريق آلاف المحابر على ملايين الصحف فى الحديث عن ذلك دون ان يكون فى الجانب العملى المقابل اى فى جانب الممارسة الا الاقل .

مثل هذا الموقف كثير فى قضايا اخرى لا سبيل الى حصـــرهـــا

ومعنى ان نخرج فى الحركة الثانية من الايمان الى الممارسة ان نتحرك حركة منظمة ومتماسكة على الخط الذى رسمناه : والا فما معنى انى اومن بالتعريب وادعو له ثم لا امارس ذلك فى كل جزئية من جزئيات الحياة وفى كل تفصيل من تفاصيلها · وما معنى ان تكون منطقة ما عربية الوجه عربية اللسان عربية الدعوة ثم تتيح للغة من اللغات الاجنبية فى عهود التخلص من التبعية ان تنتشر فيها فوق انتشار العربية انهم هنا يحدثونك عن الممكن والصعب والمتعذر وقد يعدينا هذا المنطق ثم نشهد تجارب الشعوب الاخرى فى الصين او فى الفيتنام او فى اسرائيل فنحس انه المنطق الاقوى · وتاكلنا الحسرة لاننا نؤخذ بمواطفنا باكثر مما ناخذ بامكاناتنا ، ونؤخذ بظروفنا الضيقة التى نظن انها مفروضة علينا دون ان تلهبنا الظروف العريضة التى تخلقها الشعوب الاخرى والتجارب الاخرى ، (فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) ·

* * *

ماهى اذن وسائل الممارسة التى تحكم التكامل بين التطور الاجتماعى والتطور اللغوى وما هى الاساليب التى يمكن ان ناخذ بها ؟ ما هى السمات الاساسية للواقع الاجتماعى والواقع اللغوى ؟

اننا نواجه فى المجتمعات العربية وجودا حضاريا متناميا — وان كان وجودا قاصرا على الاستهلاك اكثر الاحيان — ولكننا لا نواجه الوجود اللغوى الذى يوازيه · وفى السوق والمصنع على نحو ما هو الامر كذلك فى المختبر والجامعة والمكتبة نحس ان الحياة اللغوية هى دون الحياة الاجتماعية ، انها تقصر عنها ولذلك نلجا لنلحق بها الى سلسلة من النشاط اللغوى غير المنظم نستعير فيه بعض الكلمات من هذه اللغة او تلك ونخضعها لشىء من النظام الصوتى العربى احيانا ولبعض الصيغ العربية احيانا اخرى كما نلجا الى سلسلة اخرى من النشاط اللغوى المنظم ، ولكنه نشاط قاصر لا يكاد يلحق بالحاجة ولا يقوى على سدها ·

ونحن فى وضع لا يساعدنا على ان نقتصد فى استخدام المعطيات الحضارية الحديثة ولا على ان نختار منها ولا على او نوائم بين حاجاتنا الحقيقية وبينها ، انها تغزونا على نحو عجيب الى حد اننا نستخذى لها ونتقبل استعبادها ونصبح من اسراها

وعلى ذلك فان الجهد الموازى فى النطاق اللغوى يبدو وكانه لا بد ان يكون جهدا ضخما ما نبذله الآن له ، لايكـــن مـــن الـــوفاء بـــه ·

ان نظرة عامة نلقيها على الجهود اللغوية تقودنا الى انها تتشعب فى ثـلاثـة انـواع :

1 — الاعمال الفـــرديـــة :

وهى التى قام بها افراد متميزون ، ، كانت لهـم قدراتهم اللغويـة ، وكانت لهم قدراتهم العلمية ، وكان عندهم من ايمانهم العميـق باللغة العربية ما دفعهم الى اعداد بعض المعاجم العلمية · من ذلك معجـم شرف ومعجم الخياط فى الطب ومعجم الشهابى فى النبات ، ومعجم معلوف فى الحيوان وغيرهـا ·

2 — الاعمال التى قامت بها بعض الهيئات العلمية : كاعمال المنظمة الادارية ، ومجلس الوحدة الاقتصادية والمنظمة العربية (المعجم العسكرى) ·

3 — الاعمال التى قامت بها المجامع اللغوية واتحاد المجامـــع :

وهى اعمال صامتة عمـرها اربعـون سنـة استطاعت ان تتوج جملة الجهد اللغوى فى هذا السبيل وميزتها الكبرى انها تقوم فى الاصل على الجمـع بين الخبرات اللغوية الاصيلة وبين الخبـرات العلمية ، وانها تؤلف جهدا منظما ودقيقا وجماعيا قبل ان تنتهى الى الكلمة التى تقترحها او الكلمة التى تقـرها ·

وقد صدر عن هذه المجامع فى جملتها طائفة كبيرة من قوائم المصطلحات ومشاريع المعاجم ، وافادت منها كثرة من المعاجم التجارية المعاصرة التى صدرت بعد ذلك فى هذا البلد او ذاك من البلاد العربية ·

وحين ننظر فى هذه الكتلة كلها فان شعورا حارا من الاعجاب يملا نفوسنا ويدفعنا نحو التقدير والعرفان لان هذه الجهود آية يقين على قدرة العربية والبرهان الذى لا ينقض على امكاناتها ·

ولكن ذلك يظل دائما — مهما يبلغ تقديرنا له — متسما بصفتين اثنتين : اولاهما انـه عمـل قاصر ، والاخـرى انـه عمـل متنـاقض احيـانـا فـى

ابعاض من مفرداته ، ولعل هذا التناقض هو الذى كان وراء فكرة التنسيق ، لعله هو الذى ابتعث فكرة مكتب تنسيق التعريب ، او هو الذى حدد مهمة هذا المكتب ، انى اعتقد ان المكتب فى البداية ، انما اوجد ليكون منارة العربية على الطرف الاخر البعيد من الوطن العربى على شاطىء الاطلسى ، ، وانه اعطى بعد ذلك حدوده ومهماته ، ومهما يكن من امر فان الحديث الساعة لايتناوله ، والاشارة اليه انما تتناول التاكيد على مهمته وعلى عدم الاشراك بهذه المهمة .

وحين يرغب مكتب تنسيق التعريب فى ان يجاوز عملية التنسيق هذه الهامة وان يسد حاجة المغرب العربى الى المصطلحات العربية او ان يستجيب الى الفتاوى التى تعرض عليه فان ذلك يقتضى ان يكون فى جهازه ما يساعده على ذلك ، او ان يتشعب تنظيمه فى هذين الاتجاهين المتباعدين .

تلك على كل حال قضية اخرى ، ، وتبقى القضية الرئيسية فى الجهد اللغوى وهى انماء هذا الجهد واغناؤه حتى ياتى بعد ذلك كفاء التطور الاجتماعى فى الحياة العلمية والعملية ، وموازيا له

هاهنا احسب اننا مدفوعون الى دراسة اسلوب جديد فى العمل اللغوى احاول ان اعرضه على مؤتمركم الكريم من خلال هذا البحث .

صحيح ان مؤتمركم انما يبحث فى طائفة محددة من مشاريع المعاجم فى نطاق التعليم العام وفى نطاق التعليم الجامعى ، ، ولكن الارتباط بين هذه الحلقات الدراسية محكم شديد الاحكام ، والارتباط بين الحياة العلمية والحياة العملية كذلك محكم شديد الاحكام فلا مناص لكم من ان تفكروا بين عملكم فى اليوم وعملكم فى الغد .

فهل يستمر عملنا اللغوى فى مثل هذه الوسائل والتقنيات ؟ اننا نتجاوز التعليم العام الى التعليم الجامعى فهل نظل نخضع الى مثل هذه الاساليب المطولة التى نجتمع فيها خلال ثلاث سنوات لتحقيق هذه المراحل القاصرة ، على كل ما لها من اهمية واثر ؟

واذا تذكرنا ان مصطلحات التعليم العام هى ذاتها فى حاجة كذلك الى متابعة انمائها وتطورها فما هى قدرة مثل هذا التنظيم الذى نسير فيه على الوفاء بكل هذه الحاجات والنهوض بكل هذه المهمات وتحقيق كل هذه الغايات .

ان الانتقال الى المصطلحات فى التعليم الجامعى يقتضيها ثورة عقلانية على هذه الطرائق والخروج خروجا كاملا عليها . وان ثقل العبء فى هذا التعليم * على تجاوز مثل هذه الأساليب التى نلجأ اليها . وقد آن لنا ان نعمل على نحو جديد حتى تكون خطواتنا دليلا على قدرتنا لا دليلا على عجزنا .

والطرائق الجديدة التى ادعو اليها لا تتنافى مع ما يقوم به الافراد والهيئات والمجامع ولكنها تحاول ان تؤلف جسورا جديدة بين النمو الحضارى وبين النمو اللغوى تجعل منهما هذا النمو الواحد .

هذه الطرائق تدعو الى مجاوزة اسلوب القوائم وهذه المعاجم الصغيرة ، الى ترجمة المعاجم الاساسية الكاملة فى كل فرع من فروع المعرفة ، ينهض بهذه الترجمة اناس يختارون لها ويتفرغون تفرغا كاملا للعمل فيها ، ويمثلون خلاصة القدرات العلمية واللغوية ، ويقدمون لنا خلال سنوات محدودات كل فى نطاقه ، المعجم الاساسى لهذه الفروع من المعرفة ، ويكون ذلك كله بديلا عن هذا الجهد المجزأ ، والموسمى ، والقاصر ، الذى يدعى له افراد مشتتون فى اوقات غير منظمة ، ومن جامعات ومراكز وهيئات متباعدة ، وفى مجالات كثيرا ما تحكمها الصدفة وحدها .

ودعونى اوضح ذلك ، ، انه بدلا من ان تلجأ جامعة او مجمع ما الى ان تعد قوائم فى علم الجيولوجيا مثلا ، فان هناك معجما دوليا متداولا ذا لغتين او اكثر تختار له افضل العناصر وتقتصر جهودها على ترجمته خلال فترة زمنية محددة ، ويطرح المعجم للتداول ، ويكون تداوله هو السبيل الى تقويمه او تعديله او اقراره .

على هذا النحو نجاوز اسلوب القوائم ، ونجاوز الاسلوب الطويل فى جمع المفردات العربية المستعملة فى بعض الاقطار ثم فى جدولتها ، ثم فى المطابقة بينها وبين المقابلات الانجليزية والفرنسية المستعملة فى اقطار اخرى ،ثم اختيار بديل جديد تختاره لجنة خبراء ثم فى عقد مؤتمر لاقرار ذلك يعيد المناقشات ذاتها ، ، ثم لا نخرج

* يجعل اية مقياسه بينه وبين العمل فى التعليم العالى مقايسة بعيدة ويقهرنا قهرا

بعد ذلك بعشر المعجم او ربع المعجم فى المادة العلمية التى يعالجهـــا ·

لماذا نخلق المشكلة ثم نجهد فى حلها ؟ لماذا يكون فى صلب عملنا ان نخلق العقدة او ان نسعى عفويا الى خلقها ، ثم نعقد المؤتمرات لحلها ؟ لماذا نترك كل بلد عربى يعمل وحده فى البداية ثم نحاول بعد ذلك عملية التنسيق او التوحيـد فى جـو مـن مشاعـر الالف للاستعمالات الاولى يكاد يؤلف عائقا دون الرجـوع عنها ؟ لماذا لا نفعل كما تفعل بلاد الله كلها .. تـرد عليها المعرفة من كل مكان بكل لغة ، فتتلقاها هذه الاجهزة الكاملة ، تترجمها ثم تقدمها للباحثين عندها، وتتيح لهؤلاء الباحثين فرصـة التفرغ لها ، بدلا من أن ترهق الباحث وتوزع جهده بين البحث العلمى وبين البحث اللغـوى ·

قد يبدو ذلك عسيرا ، ، ولكن الواقع هو الطريق الذى لا طـريق غيره لتجاوز التصـور الجماعـى ، والتجزئة الواضحة ، والتعارض الفردى ، ، بل انه هو الطريق الذى قام به العرب فى واحدة مـن التجـارب الموفقة التى كانت جديرة بالاحتذاء فى فروع المعرفة كلها· التجربة التى اشير اليها تتمثل فى المعجم العسكـرى الذى اخرجته جامعة الدول العربية ، وهو معجـم فى اربعة مجلدات ، اتخذ من احـد المعجمات الدوليـة الموحدة منطلقا ، وتألفت له لجنة عكفت عليه وتفرغت له عكوفا وتفرغا كاملين ، لا يشغل اصحابها شىء غيره واستطاعت فى ثلاث سنوات ان تخرجه وان تضعه موضع التداول وان تجعله فى هذه الأجزاء الاربعة عربى — فـرنسى ، عربى — انجليزى ، فرنسى — عربى ، انجليزى — عربى ، وصار هو هذا المعجم المعتمد فى وزارات الدفاع فى البلاد العربية كلهـا ·

لماذا لا يمضى عملنا فيما نستقبل من العمل فى التعليم الجامعى فى هذا السبيل ؟ ، ، لماذا لا تكون هذه هى التجربة ، وتكون هذه اللجان نـواة جهـاز مركزى كامل بعد ذلك للترجمة العلمية ، بـواء فى نطاق المصطلحات او فى نطاق البحـوث ·

مثل هذه الخطوة هى التى ستحذوها المنظمـة الادارية فى جامعة الدول العربية . التى تعتمـد الآن معجمـا اداريا دوليا تـريد أن تنطلـق منـه ·

ومن قبل ماكانت الخطوة التى خطتها سورية فى معجم «كليرفيل» الطبى ذى اللغات الثلاث حين اضافت اليه اللغة العربية ، وصدر على نحو جديد عن وزارة التعليم العالى فى سـورية باسم معجم المصطلحات الطبية العربية ·

ان هذا الذى ادعو اليه يتركز فى هذين المفهومين

1 — تجاوز مرحلة القوائم الى مرحلة المعاجم ·

2 — تجاوز مرحلة بعض المفاهيم الى محاولة استغـراق المفاهيـم ·

وانى لاقدر الصعوبات التى قد تواجه مثل هذا الاسلوب ، ، ولكنها تبقى — بتأكيد لا حد له — دون الصعوبات التى نواجهها ، ، بل لعلها الخطوة المنهجية المنظمة التى كان من الممكن أن نقع عليها من قبل لولا اننا واجهنا التقدم العلمى فرادى ، ، فرادى فى كـل مجتمع ، ومجامع وجامعات متباعدة فى كل بلد ، ، فاذا كنا جادين حقا فى عمل لغوى جماعى فان هـذا هـو الاسلوب الذى يجب أن نعـود اليه وان ننطلق منه ·

اننا حين نتامل اسلوبنا القائم نعيش شعورين متناقضين ، ، نرضى عنـه بعض الرضى فى حـدود رغبات مكبوتة لعمل وحدوى ، لا تجد متنفسها الا على هذا الشكل ، ، ولكننا ننكـر اشـد الانكار ، وقـد تسخطون عليه اشد السخط ، حين تقرنونه بالصورة المثلى للعمل اللغوى العـربى ، ، بـل أن سخطكـم سيتجاوز سخطى حين تقرننونه بالذى تقوم به جماعات بشرية اخرى ، وسيبلغ ابعد المدى حين تقرنونه بينه وبين الذى يتم فى اسرائيل ·

لاأحسب انه يمكن أن تجتمع صفوة من المهتمين باللغة والمهتمين بالعلم ، ومن الماكفين على الثقافـة العربية ، ومن الذين تؤرقهم تطلعاتهم ومشاعرهم — على نحو ما تجتمع هذه الصفوة اليوم ، ، وان الملايين التى تتطلع الينا من الذين يدبون على الأرض العربية فى مدارسها وجامعاتها ، والملايين التى وراءها مـن الذين يحمل بهم الغيب ، هؤلاء كلهم يلقـون اليكـم بالامانة ، وقد جئتم من كل فج لتحملوا هذه الامانة ، ولابد لكم من الجهر بكل ما يتصل بها · ان القناعـة بالخطوة الواحدة ، مع تقدم الزمن ، خطوة الى الوراء ولا احسب اننا جئنا لنتحرك الى الوراء ·

* * *

هذا عن المواكبة بين النمو الاجتماعى وبين النمو اللغوى · وان لهذا النمو اللغوى جوانب مـن نبش

التراث فى عملية منظمة ، وجوانب من تلمس الوجدان اللغوى القائم فى العاميات التى لا تتناقض مع العربية ، وجوانب من احصاء ما كان حتى الآن من الجهود التى لم تعلن ، ،

ان رصد ذلك كله وضبطه وتجميعه فى عمل يشبه ان يكون اعدادا سريعا لمعركة داهمة ، هو عمل لابد منه فى رفد الخطة الاساسية التى ادعو اليها

* * *

اما الجانب الآخر من النمو اللغوى فى جوانب الحياة اليومية ، فى هذا الذى نسميه الفاظ الحضارة فلا بد كذلك فيه من اسلوب آخر يتجاوز لجان الفاظ الحضارة فى كل مجتمع الى عمل سابق لدخول هذه المعطيات الحضارية فى حياتنا اليومية .

ان عملنا فى تسمية كل ما يصل الينا يأتى تاليا لوصوله واستخدامه والتعثر فيه ، ، ومن الخير لو امكن أن تدخل هذه الأشياء وتدخل معها تسمياتها ، ، ولو كان عندنا من المواجهة والتنظيم هذا القدر الذى لا بد منه لحرمنا أن نستقبل من ذلك شيئا ما لم نضع له التسمية التى تعبر عنه ، ، واذا كنا نحرم أحيانا دخول بعض الاشخاص او بعض المواد او التعامل مع بعض المؤسسات ، ، فلماذا — أمام الايمان بالسلامة القومية — لا نحول بين دخول الاشياء الكثيرة التى نقذف بها قبل أن نتبينها فتكون تسميتها طريقا الى هذا التعرف لها ثم التعريف بها .

ذلك هو كذلك جانب خطير من جوانب التمزق اللغوى ، ، مصدره أن الشىء من الاشياء يدخل البلاد العربية ليطلق عليه كل بلد اسما ، ، ولعله يطلق عليه فى البلد الواحد عديد من الاسماء تبعا للبوابات الجمركية التى دخل منها . ثم تكون وظيفته الحضارية أن يساعدنا أحيانا على الكسل ووظيفته اللغوية ان يساعد على بناء برج بابل جديد فى الوطن العربى .

ان مشاعر من الصعوبات تجتاحنا أحيانا ونحن نفكر فى هذا ، ، ذلك لاننا تعودنا دائما الخضوع الى الاشياء لا المبادرة اليها ، ، والا فما الذى يمنع مثلا من أن تطبق شركات الطيران التجربة الليبية فى تعريب كل المصطلحات والاشارات والاختصارات . لماذا نظل نصر على الصعوبة ونتحدث عنها ، كأنما ليست الصعوبة فى أن يتسلم الانسان العربى المسافر على احدى الطائرات تذكرة من الشركة فلا يعرف متى يوم السفر ولا موعد الاقلاع .

هل اقول ان القضية ليست قضية صعوبة او تعذر ، ، انما هى قضية الف للاشياء واستسلام لها فى اغلب جوانب هذه المعركة المتجددة ، معركة التعريب .

* * *

وبعد فانه يبقى فى تعميم هذا التواكب بين النمو الحضارى والنمو اللغوى من نحو وفى اشاعة جهوده وتبادلها من آخر امران خطيران .

أولهما : القرار السياسى الذى تحتاج اليه بعض المناطق العربية . واحب ان اشير هنا الى أن مثل هذا القرار لم يعد نافلة من النافلة ، وانما اضحى واجبا من الواجب ، ، فلم يعد الأمر موضع نقاش على الجانب النظرى ، ، واذا كان هنالك الذين يتخوفون من مثل هذا القرار او يلجأون الى التأنى طلبا للسلامة فان السلامة اصبحت هى التى تقتضى القرار ذاته .

ولست اعيد هنا مختلف البراهين ، ، لا ما يتصل منها بالعقيدة ، ولا ما يتصل بالتراث ولا ما يتصل بارتباط ما بين نشر المعرفة والنمو وبين اللغة الوطنية ولست اعيد هنا كذلك الحرص على الوحدة الوطنية وتجنب الطبقية الثقافية ، وخطر الغزو الثقافى الجديد ولكنى اكتفى بآخر ما كان فى هذا الموضوع حين اجتمع وزراء التعليم العالى فى الرباط فى مؤتمر وبحثوا موضوع التنمية لقد كان مؤتمرا على ارفع مستويات الوطن العربى وكان مؤتمرا جديا انتهى الى اقرار تعريب التعليم الجامعى .

هذا احد الامرين الخطيرين . اما الامر الآخر فيتصل باشاعة هذه المصطلحات التى انتهينا اليها . والمؤلفات العلمية العربية التى انتهت اليها طوائف من العلماء والجامعيين ، ان الدليل العملى يبقى دائما ادعى الى اليقين من الادلة النظرية ، وقد استبان لنا فى بعض هذه المؤتمرات أن مدى ما بين أجزاء الوطن العربى من تواصل رغم كل ما يقال فى العالم الجديد عن أهدار المسافات واختصار الزمن لم يسمح حتى الآن بعرض تجربة بعض الافكار ولا بنشر بعض المؤلفات ولا بتداول بعض المعاجم ، ، بل ان بعض

المعاجم تظل حبيسة المخازن والمستودعات وطرود البريد فى بعض البلاد او فى بعض الدوائر ، ، ولو أن احدنا سأل عن المعجم العسكرى العربى الموحد أين يجده لما وجد من يجيبه ، ، ان المعجم الوسيط نفسه الذى جاء فى اعقاب جهد شاق لمجمع اللغة العربية فى القاهرة : لا ينتشر على الرقعة الواسعة التى كان يجب أن ينتشر عليها .

لابد اذن من أن تتبنى المنظمة فكرة نشرة دورية تتولى التعريف بكل هذه الجهود ، ، مجرد تعريف سريع على نحو ما يفعل معهد المخطوطات فى نشرة التراث العربى . على أن تكون العناية بتوزيعها عناية دقيقة .

ويبقى آخر ذلك وأول ذلك دور الاعلام ، ، ان الاعلام العربى يمكن ان يؤدى أعظم الخدمات فى ممارسة المصطلحات واشاعتها وفى أن يكون النمو اللغوى — فى مجال الفاظ الحضارة وفى مجال بعض المصطلحات الحديثة التى تتعاورها الانباء مواكبا للنمو الحضارى .

ولكنى اعتقد أن الحديث المفصل على ذلك سيتجاوز بى دائرة البحث ، ، وحسبى ان اتمنى ان تستخدم وسائل الاعلام على نحو مرض ، ، انها احيانا تفسد ما تبنيه المدرسة فاذا تذكرنا ان مثل هذه الوسائل حين استخدمت استخداما سليما فى بعض الشعوب استطاعت ان ترتفع بها من الحضيض الى أن تلامس الفضاء ادركنا اى عبث يخالط استخدام هذه الوسائل واى هدر لمهماتها .

تمنيت لو أن المؤتمر اتاح لمثل هذا الموضوع الهام حظه من مشاركة الوفود جميعا فيه ولكن يبدو أن البريد الذى اقترح الموضوعات الاربعة لهذه الدورة لم يقدر له ان يبلغ الدول العربية كلها وقد وصلنا الى سورية أياما قبل المؤتمر .

والسلام عليكم ورحمة الله ، ،